جهود الإمام عبد الحميد بن باديس في مواجهة المشكلات العقدية والفكرية للنخبة المتعلمة باللسان الفرنسي

د. نور الدين سكحال
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية -قسنطينة

الملخص:

يتناول المقال جانبا من الجهود الإصلاحية للإمام ابن باديس لم تحظ بالاهتمام الكافي من قبل الدارسين، حيث يعرض المقال للأوضاع التي كانت عليها النخبة المتخرّجة من المدارس الفرنسية في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، ويوضح أسباب ابتعاد هذه النخبة عن الدين في نظر الإمام ابن باديس، ويقف عند مجموعة من المشكلات الفكرية والعقدية التي كانت تعاني منها، والمتمثّلة في نظرة هذه النخبة للعلاقة بين الدين والعقل، و اغترارها بالعلم الحديث وافتتانها به، ونظرتها لعلاقة الدين بالنهضة، ويوضح جهود الإمام ابن باديس في مساعدة هذه النخبة على تجاوز هذه المشكلات.

Abstract

This article discusses the reform efforts of Imam Ibn Badis on elite graduate of the French school in the period of the French occupation of Algeria, and describes the situation in which she found herself, and explains its causes concealing Imam Ibn Badis, and cites some intellectual and doctrinal issues which this elite suffered, tell the relationship between faith and reason, and the relationship between religion and rebirth, and illustrates Ibn Badis efforts to help this elite to overcome these problems.

تمهيد

اكتفت غالب الدراسات التي كتبت عن الفكر الإصلاحي للإمام عبد الحميد بن باديس أو توقفت عند بيانها لجهوده الإصلاحية في المجال العقدي من حياة المجتمع الجزائري بالتأكيد على جهوده في محاربة مظاهر الشرك في ممارسات كثير من أفراد هذا المجتمع، رغم أنّ جهوده شملت فئات متعدّدة في الواقع الذي رام إصلاحه، منها الفئة المتعلّمة باللّسان العربي، والفئة المثقفة باللسان الفرنسي، وأصحاب الطرق الصوفية.

ومن الجوانب المهمّة جدا في جهود الإمام الإصلاحية التي لم تدرس بشكل كاف، رغم الأهمية التي كان يوليها لها الإمام نفسه، والحركة الإصلاحية التي كان من قياداتها، ما يتعلّق بالنخبة المتعلّمة باللسان الفرنسي والمشكلات العقدية والفكرية التي كانت تعاني منها، وجهود الإمام ابن باديس في تمكين هذه النخبة من تجاوز هذه المشكلات، واستعادتها إلى رحم الأمة الجزائرية لتساهم بقدراتها العلمية والعقلية في النهضة بمجتمعها.

وأحاول في هذه المقال الوقوف عند بعض المشكلات الفكرية والعقدية لهذه النخبة في عهد ابن باديس، وجهود الإمام في معالجتها، وذلك من خلال العناصر الآتية:

1- الأوضاع الفكرية والعقدية والنفسية للنخبة المتعلّمة باللسان الفرنسي:

حين نعود إلى آثار الإمام ابن باديس نجد نصوصا عديدة قدّم لنا فيها الإمام وصفا للحالة الفكرية والعقدية والنفسية التي كانت عليها النخبة المتعلّمة المتخرجة من المدارس الفرنسية في الجزائر.

من هذه النصوص قول الإمام ابن باديس متحدّثا عن استحواذ المدارس الفرنسية على تعليم أبناء الجزائريين، والتأثيرات السلبية لهذا التعليم على شخصيتهم، وذلك حين قال: " لقد كان هذا العبد يشاهد قبل عقد من السنين هذا القطر قريبا من الفناء، ليس له مدارس تعلّمه، وليس له رجال يدافعون عنه، ويموتون عليه، بل كان في اضطراب

دائم مستمرّ، ويا ليته كان في حالة هناء، وكان أبناؤنا يومئذ لا يذهبون إلا للمدارس الأجنبية، التي لا تعطيهم غالبا من العلم إلا ذلك الفتات الذي يملأ أدمغتهم بالسّفاسف، حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم وقد ينكروها.

هذه هي الحالة التي كنّا عليها في تاريخنا الحديث، وما كنّا لنرضى بها أو نبقى عليها وقد ولدتنا أمهات مسلمات جزائريات يأبين إلاّ أن نبقى كما ولدنا، وتأبى ثقافتنا ألاّ نرجع إلاّ لما عليه كنّا "[1].

وأكّد في هذا النص أنّ هذه المدارس لا تعطي للجزائريين إلاّ تعليما هزيلا يشغلهم بسفاسف الأمور، مع حرمانهم من تعلّم دينهم ولغتهم وتاريخهم، وهو ما يترتّب عليه في كثير من الحالات –مع وجود استثناءات قليلة– موقف سلبي من هؤلاء تجاه دينهم وقوميتهم، أشار إليه الإمام بعبارة دقيقة في هذا النص: " حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم وقد ينكروها".

وقال في سياق آخر مبيّنا الآثار الخطيرة لهذا التعليم على شخصية الشباب الجزائري المتخرّج من هذه المدارس: " شباب أنساه التعليم الاستعماري لغته وتاريخه ومجده، وقبّح له دينه وقومه، وقطع له من كل شيء ــ إلا منه ــ أمله، وحقّره في نفسه تحقيرا"[2].

وكان الأمل في سدّ هذا الخلل، والتقليل من الآثار السيئة للتعليم الفرنسي على الشباب الجزائري في مدارس التعليم العربي الحرّ والقائمين عليها من المتعلّمين باللسان العربي، ولكنّ هذه المؤسسات لم تكن قادرة على القيام بهذا الدور بسبب الجمود الذي كانت تعاني منه في مقرراتها، وفقدان المتخرجين منها لفهم جيّد لمشكلات عصرهم، وافتقادهم القدرة على معالجة هذه المشكلات، وكان أعظم ما قاموا به الدخول في

---

[1] – عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس: ج4، ص.148.

[2] – أحمد حماني: صراع بين البدعة والسنة، ج1، ص.57.

صراع مع المتعلّمين باللّسان الفرنسي حيث اتهموه بالكفر، وردّ عليهم هؤلاء فاتهموهم بالجمود والبعد عن قضايا العصر، أشار الإمام ابن باديس إلى هذا الأمر بقوله: "العلوم في الجزائر كما أظنّها في غيرها، منها علوم تؤخذ باللّسان العربي وهي علوم الدّين واللّسان، ومنها علوم تؤخذ باللّسان الأجنبي وهي علوم الأكوان والعمران، وقد كان الذين يزاولون العلوم الأولى على جمود تام، كما كان الذين يزاولون العلوم الثانية على تيه وضلال، فهؤلاء يعتبرون الآخرين أحجارا...وأولئك يعتبرون هؤلاء كفارا.."[1].

2- نموذج المثقف المثالي في نظر ابن باديس

يعتبر الإمام ابن باديس قدرة المتعلّم على المحافظة على أصالته مع سعيه لتحصيل ما أمكنه من علوم العصر من أهمّ ميزات المثقّف الذي يستطيع نفع المجتمع الذي ينتمي إليه، والمساهمة في نهضته من كبوته وتخلّفه.

ونجده يضرب الأمثلة على ذلك ببعض العلماء والمتعلّمين من أمثال أستاذه البشير صفر، فقد ذكر في كلمة ألقاها بتونس سنة 1937م- في ذكرى وفاة أستاذه - أنّ أستاذه جمع في شخصيته ثلاث صفات لا يتصف بها إلا الكاملون من العلماء العاملين، فجعل في مقدّمتها محافظته على أصالته في ثقافته الإسلامية، وعدم افتتانه بما تلقاه من علوم ومعارف إنسانية واجتماعية غربية في باريس، وهو ما أهّله لخدمة مجتمعه في ميدان التعليم وميادين أخرى خدمة متميّزة، يقول الإمام ابن باديس عنه: " إنّه رجل بنى ما أخذه من العلوم باللُّغات الأجنبية على ثقافة إسلامية عربية، وبذلك استطاع أن يخدم أمّته وأن يحتلّ قلبها"[2].

---

[1] - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس: ج4، ص.116.

[2] - المصدر نفسه ، ص.317.

3- المشكلات العقدية والفكرية للمتعلمين باللسان الفرنسي وجهود الإمام في معالجتها:

كان للفئة المتعلمة باللّسان الفرنسي مشكلاتها العقدية والفكرية الخاصة التي تعاني منها، وأهمّ أسباب هذه المشكلات في نظر الإمام ابن باديس سببان اثنان هما:

* حرمان هذه النخبة من تعلم دينها وفق منهج سليم يعطي للعقل مكانته التي يستحقّها.

* تأثر هذه النخبة ببعض أفكار المثقفين الفرنسيين والغربيين في موقفهم من الدّين المسيحي.

ومن خلال قراءتي لآثار الإمام وتتبعي لأعماله الإصلاحية وجدت أنّ أهمّ المشكلات العقدية والفكرية التي تتعلق بهذه الفئة، ثلاث مشكلات أساسية:

* مشكلة تتعلّق بالعلاقة بين الدين والعقل.

* مشكلة الاغترار بالعلم والافتتان به.

* مشكلة علاقة الدين بالنهضة.

أولا- مشكلة العلاقة بين الدين والعقل:

فقد كان لدى هذه الفئة صعوبات كبيرة في التوفيق بين ما حصّلته من معارف ترفع من شأن العقل وتقدّسه، وبين ما لاحظته في طرح بعض المتعلمين باللسان العربي من قضايا فيها استصغار من شأن العقل ودوره في تحصيل المعرفة وبناء الأحكام في الموضوعات المختلفة.

وقد أشار الشيخ ابن باديس إلى معاناة هذه النخبة من هذه المشكلة في تكوينها حين دعا إلى انتشالها ممّا هي فيه فقال: "انتشال الشباب المثقف بالثقافة الجديدة من وهدة الشكّ في كلّ شيء يعزى إلى الدين بسبب ما يجده من خرافات وسخافات لا

يمكن للعقل أن يصدقها، وأن يعزوها إلى دين اشتهر باتّصاله بالعقل اتصالا وثيقا، بحيث لا يقبل من تعاليمه ما لا يقبله العقل وما لا يدخل في دائرة الوعي السليم"[1].

ولما كان من أهداف العمل الإصلاحي للإمام ابن باديس إنقاذ هذه الفئة واستعادتها إلى رحم مجتمعها ليستفيد من معارفها، وتقوده في نهضته، فقد حرص على التوجّه بخطاب خاص إلى هذه الفئة يبين فيه مدى تقدير الإسلام كدين للعقل، واعتباره أعظم وسيلة زوّد الله بها الإنسان لتحصيل المعارف وتنميتها، لكنه ينبهها في المقابل أن هذا العقل مهما كانت قدراته كبيرة فإنها تبقى عاجزة عن فهم بعض الأسرار في الخلق، يقول الشيخ ابن باديس: "قد رأيت كيف يقف العقل عاجزا أمام بعض أسرار الخلق والقدر والشرع والقرآن، مع يقينه بما علم منها أن ما عجز عن إدراكه ما هو إلا مثل ما عرف من الحق والحكمة والنعمة، إذ الجميع- ما عرف وما عجز عنه- من إله واحد حكيم خبير رحمان رحيم.

فليذكر الناظر في خلق الله وقدره وشرعه وكلامه دائما هذه الحقيقة، وهي ثبوت الحق والحكمة والنعمة في جميعها، وإمكان عجز عقله في بعض المواضع والأحوال عن إدراكها، فيكون عمله في خلق الله هو النظر والبحث والتحليل والاكتشاف واستجلاء الحقائق الكونية واستخراج الفوائد العلمية والعملية إلى أقصى حدّ توصله إليه معلوماته وآلاته، حتى إذا انتهى إلى مشكل استغلق عليه اعترف بعجزه، ولم يرتكب من الأوهام والفروض البعيدة ما يكسو الحقيقة ظلمة، ويوقع الباحث من بعده في ضلالة أو حيرة.

فكثيرا ما كانت الفروض الوهمية الموضوعة موضع اليقينيات سببا في صدّ العقول عن النظر وطول أمد الخطأ والجهل"[2].

---

[1]- عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 3، ص. 253.

[2] – عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص.361.

وكذلك كان يفعل الإمام ابن باديس مع هذه النخبة حين تَرِد عليها بعض الشبهات في دينها بسبب بعض قراءاتها لمفكرين غربيين ينتقدون الإسلام ويثيرون حوله الشبهات، من ذلك ما ذكره من لقائه بأحد المثقفين الجزائريين بمدينة سوق اهراس ممّن أشكل عليهم فهم قضية القدر، حيث يقول الشيخ ابن باديس: " وكانت بعده مسائل مما كان يجده السيد جازي في كتب الفرنسيين عن الإسلام والمسلمين ويعسر عليه فهمها وخصوصا مسألة القدر، ففهّمته مسألة الاختيار الذي يجده في نفسه، وحريّة الإرادة التي يُبنى عليها فعله، وقيام الحجة عليه بهما، وهو لا يستطيع إنكارهما"[1].

ثانيا- مشكلة الاغترار بالعلم الحديث:

هذه هي المشكلة الأولى التي كان الشيخ ابن باديس يعمل على تمكين هذه الفئة من تجاوزها، أما المشكلة الثانية، فتعتبر امتدادا لها، وتتمثل في اغترار أفراد من هذه النخبة بما توصل إليه العلم الحديث من اكتشافات، واعتبارهم أن لها الكلمة الأخيرة في الحكم ببطلان ما يخالفها، ولو كانت نصوصا قرآنية أو أحاديث نبوية صحيحة.

ونجد في كتابات الإمام ابن باديس بيانا لهذه المشكلة، واجتهادا في تقديم العلاجات لها، من خلال ما كان يمتلكه من معارف كونية واجتماعية بالإضافة إلى رسوخه في علوم الشريعة الإسلامية، حيث كان يبيّن لهذه النخبة أن أمورا كثيرة مما اكتشفه الإنسان في العصر الحديث، قد جاءت مصدّقة لما ورد في القرآن الكريم، مما يدل على عظمة ما يتضمنه هذا الكتاب من معارف، وعلى أن مصدره الوحي الإلهي، وكمثال على هذه المعالجة نقتبس هذا النص من آثار الشيخ ابن باديس لنأخذ صورة عن جهوده مع هذه الفئة، ففي تفسيره لقوله تعالى: **{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً}**[الإسراء: 12]، قال: "واتفق علماء

---

[1] – عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4 ، ص. 240.

الفلك في العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أنّ جُرم القمر-كالأرض- كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحمُوّ والحرارة ثم برد، فكانت إضاءته في أزمان حموّه، وزالت لما برد.

لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية، ذلك الكتاب الذي جعله الله حجة لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم وبرهانا لدينه على البشر مهما ترقّوا في العلم، وتقدموا في العرفان.

فإن ظلام جرم القمر لم يكن معروفا أيام نزول الآية عند الأمم إلا أفرادا قليلين من علماء الفلك، وأن حموّ جرمه أولا وزواله بالبرود ثانيا ما عرف إلاّ في هذا العهد الأخير.

والذي تلا هذه الآية وأعلن هذه الحقائق العلمية منذ نحو أربعة عشر قرنا نبي أمي من أمّة كانت في ذلك العهد أبعد الأمم عن العلم، فلم يكن ليعلم هذا ويقوله إلا بوحي من الله الذي خلق الخلائق، وعلم حقائقها"[1].

كما كان يبين لهم أن ما يظهر من تعارض بين حقائق توصّل إليها العلم الحديث وبين نصوص قرآنية أو أحاديث نبوية صحيحة إنما يرجع سببه إلى قصور في فهم هذه النصوص، أو غياب معطيات كاملة تمكننا من فهمها فهما صحيحا، ويمكن أن نضرب المثل على جهود الشيخ ابن باديس في إقناع هذه النخبة بهذا المنهج بما قاله تعليقا على حديثْ عَائِشَةَ رضي الله عنها **أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا اشْتَكَى الإِنْسَانُ الشَّيْءَ مِنْهُ أَوْ كَانَتْ بِهِ قَرْحَةٌ أَوْ جَرْحٌ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِإِصْبَعِهِ هَكَذَا وَوَضَعَ سُفْيَانُ سَبَّابَتَهُ بِالأَرْضِ ثُمَّ رَفَعَهَا " بِاسْمِ اللَّهِ تُرْبَةُ أَرْضِنَا**

[1] – عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص.77.

بِرِيقَةِ بَعْضِنَا لِيُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا بِإِذْنِ رَبِّنَا"[1]، حيث أكّد أنه لا يصح عقلا وعلما المسارعة إلى إنكار ما يدلّ عليه هذا النص وغيره من النصوص الواردة في الكتاب والسنة، لمجرد ملاحظة مخالفتها لما قرّره العلم، وإنما ينبغي التريّث حتى يظهر من الكشوف العلمية ما يمكن أن يدلّنا على المعنى الصحيح لما تضمّنه هذا النص، أو بتعبير الإمام ابن باديس: " وإنما يترقّبون من سنن الله في الكون وتدبيره في الاجتماع ما يكشف لهم عن حقائقهما، ويكلون إلى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم"[2].

ثمّ يؤكد الإمام ابن باديس على حقيقة أنّ الزمن كفيل بإظهار التأويل الصحيح لكثير من النصوص المُشكلة على الفهم في القرآن والسنة، فيقول: " إن القرآن كتاب الدّهر، ومعجزته الخالدة، فلا يستقلّ بتفسيره إلاّ الزمن، وكذلك كلام نبينا المبين له.

فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع، لم تفهم أسرارها ومغازيها إلا بتعاقب الأزمنة وظهور ما يصدّقها من سنن الكون .

وكم فسّرت لنا حوادث الزمن واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن ومتون الحديث، وأظهرت منها للمتأخرين ما لم يظهر للمتقدمين، وأرتنا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم **{وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ}**[3] "[4].

---

[1] – أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري: الجامع الصحيح ، كتاب السلام، باب استحباب الرقية من العين والنُملة والحمّة والنظرة، ج.7 ، ص.17 .

[2] – عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، ص.411.

[3] – أبو بكر بن العربي، عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، د.ط، دار الكتاب العربي، بيروت، د.تا، ج.11، ص.30.

[4] – عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص.411.

وبهذه الطريقة جمع الشيخ ابن باديس في توجيهه لهذه النخبة " بين تكريم العقل وبين وجوب تواضعه، حتى لا يضلّ الإنسان في الإعجاب بنفسه وعقله"[1].

ثالثا- مشكلة علاقة الدين بالنهضة:

أمّا المشكلة الثالثة التي تعاني منها هذه النخبة فتتمثل في الاعتقاد السائد عند كثير من أفرادها بأنّ التزام الجزائريين وغيرهم من المسلمين بالدّين هو سبب تخلفهم، وأنه لا مطمع لهم في أيّ تقدم إلاّ إذا فعلوا ما فعله الغربيون من قبلهم حين تخلصوا من هيمنة الكنيسة وفكرها الخرافي على تفكيرهم، وفتحوا المجال واسعا أمام عقولهم.

وكان الإمام ابن باديس في كتاباته الموجّهة إلى هذه النخبة يؤكد أن الإسلام لم يكن في يوم من الأيام سببا لتخلف معتنقيه، وإنما على العكس من ذلك كان أعظم سبب حفزهم على صناعة حضارة امتد عطاؤها للمجتمع الإنساني لقرون من الزمن، وأنّ ما يُرى من تخلف في حياة المسلمين وغيرهم، إنّما مردُّه إلى إهمال المسلمين الأخذ بالأسباب التي يأمر دينهم بالأخذ بها.

ومن كتاباته لهذه الفئة في الموضوع قوله: "وقد أفادت الآية[2]...أنّ أسباب الحياة والعمران والتقدّم فيهما مبذولة للخلق على السواء، وأنّ من تمسّك بسبب بلغ-بإذن الله-إلى مسبّبه، سواء أكان برا أم فاجرا، مؤمنا أم كافرا.

وهذا الذي أفادته الآية الكريمة مشاهد في تاريخ المسلمين قديما وحديثا، فقد تقدموا حتى سادوا العالم ورفعوا عَلَم المدنية الحقة بالعلوم والصنائع لما أخذوا بأسبابها كما يأمرهم دينهم، وقد تأخروا حتّى كادوا يكونون دون الأمم كلّها بإهمال تلك

---

1 – محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، ط2، ص.98.

2 – الآية هي قوله تعالى: { **كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً** ﴿٢٠﴾ } [الإسراء: 20].

الأسباب ، فخسروا دنياهم وخالفوا مرضاة ربهم وعوقبوا بما هم عليه اليوم من الذلّ والانحطاط ، ولن يعود إليهم ما كان لهم إلاّ إذا عادوا إلى امتثال أمر ربهم في الأخذ بتلك الأسباب.

فهذه الآية من أنجع الدواء لفتنة المسلم بغيره المتقدّم، لما فيها من بيان أنّ المسلم ما تأخر بسبب إسلامه، وأنّ غيره ما تقدم بعدم إسلامه، وأنّ السبب في التقدم والتأخر هو التمسك والترك للأسباب"[1].

ومع تأكيده على أهمية الأخذ بالأسباب أو تركها في التقدم أو التأخر، فإنّ الشيخ ابن باديس لا يُغفل لفت انتباه هذه الفئة إلى ما يقرّره القرآن في نصوص كثيرة من أنّ من أهم أسباب تغيير حال الناس نحو الأحسن التزامهم بالإيمان بالله ومقتضياته، وذلك حين يعلّق على مجموعة كبيرة من الآيات القرآنية أشارت إلى أسباب هلاك المجتمعات والأمم، منها الآيات الثلاث الآتية: {**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدا** ﴿٥٩﴾ } [الكهف: 59]، {**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴿١١٧﴾} [هود: 117]، { **وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ** ﴿٥٩﴾} [القصص: 59]، حيث يقول: "وقد عرّفنا في الآيات المتقدمة بأسباب الهلاك والعذاب لنتقي تلك الأسباب فنسلم أو نقلع عنها فننجو، فإن بطلان السبب يقتضي بطلان المسبّب.

وقد ذكر لنا في كتابه أمّة أقلعت عن سبب العذاب فارتفع عنها بعدما كان يترل بها، ليؤكّد لنا أن الإقلاع عن السبب ينجّي من المسبّب فقال تعالى: {**إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ** ﴿٩٨﴾ } [يونس: 98].

[1] – عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، ص.91.

فمبادرتهم للإيمان وإقلاعهم عن الكفر كشف عنهم العــذاب، وأرشــدنا في ضمن هذا إلى العلاج الناجع في كشف العذاب وإبطال أسبابه وهو الإيمــان، كمــا أرشدنا الله إليه أيضا في قوله تعالى: **{فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا}** [يونس: 98]، أي نجّاها من العذاب، وذكر قوم يونس دليلا لذلك، وأرشدنا إليها أيضــا في قوله تعالى: **{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّــنَ السَّــمَاءِ وَالأَرْضِ}** [الأعراف: 96]، فالإيمان والتقوى هما العلاج الوحيد لنا في حالتنا لأنّنا إذا التزمناهما نكون قد أقلعنا عن أسباب العذاب"[1].

كما انتقد الشيخ ابن باديس الطريقة التي ينظر بها أفراد هذه النخبة إلى المدنيــة الغربية باعتبارها تمثّل النموذج الكامل في الصلاح والتقدم، فبيّن بعض الجوانب الــتي أخفقت فيها هذه المدنية رغم نجاحها في الجانب المادي حيث قال: "رأى بعض الناس المدنية الغربية المسيطرة اليوم على الأرض- وهي مدنية ماديــة في نهجهــا وغايتــها ونتائجها، فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرّحمة والإحسان-، فقالوا: إنّ رجال هذه المدنية هم الصالحون الذين وعدهم الله بإرث الأرض، وزعموا أن المراد بــ(الصّالحون) في الآية[2] الصالحون لعمارة الأرض، فيا لله للقرآن وللإنســان مــن هــذا التحريــف السخيف، كأنّ عمارة الأرض هي كلّ شيء، ولو ضلّت العقائد وفسدت الأخــلاق، واعوجت الأعمال وساءت الأحوال، وعُذّبت الإنسانية بالأزمات الخانقة، ورُوّعــت بالفتن والحروب الجارفة، وهُدّدت بأعظم حرب تأتي على الإنسانية، من أصلها والمدنية من أساسها.

---

[1] – عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص ص.165- 166.

[2] – الآية هي قوله تعالى:**{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴿١٠٥﴾}** [الأنبياء : 105].

هذه هي البلايا الإنسانية التي يشكو منها أبناء هذه المدنية التي عمّــرت الأرض وأفسدت الإنسان، ثم يريد هذا المحرّف أن يطبق عليها آية القرآن: كتاب الحق والعدل والرحمة والإحسان وإصلاح الإنسان ليصلُح العمران"[1].

ونختم حديثنا عن هذه المشكلة بتوجيه قدّمه لبعض الطلبة الذين توجّهوا لدراسة العلوم الحديثة في باريس، توجيه جمع فيه بين ضرورة المعرفة الدقيقة بأسباب نهوض هذه المجتمعات، وأخذ ما يناسب مجتمعهم وثقافته ودينه، يقول الإمام ابن باديس موجّها: " فإذا أردنا أن نقتبس منهم كما اقتبسوا منا، ونأخذ عنهم كما أخذوا عنا، فعلينـــا أن نخالطهم، ونخالطهم في ديارهم حيث مظاهر مدنيتهم الفخمة في مؤسساتهم العلميـــة والصناعية والتجارية، في أحزابهم على اختلاف مباديها، في جمعياتهم علـــى اخـــتلاف غاياتها، في عظمائهم أصحاب الأدمغة الكبيرة التي تمسك بدفة السياسة، وتدير لولـــب التجارة، وتسير سفينة العلم، فالذين يخالطونهم هذه المخالطة بتمـــام تبصـــر وحســـن استفادة، يخدمون أنفسهم وأمتهم خدمة لا تقدر، خدمة تكون أساسا للتقدم والرقي.

فلهذا نرى ما عزم عليه أفراد متنوّرون من شبابنا الناهض من إيفاد وفد إلى الديار الفرنسوية من أهم المشاريع التي يجب تأييدها وشكر القائمين بها"[2].

هذه بعض المشكلات العقدية والفكرية التي كانت النخبة المتعلّمة باللسان الفرنسي تعاني منها، وبعض جهود الإمام ابن باديس في معالجتها، ويحتاج الموضوع لأهمّيّته إلى دراسة أشمل وأعمق من خلال آثار الإمام، وأعمال جمعية العلماء، لإبراز دور الحركة الإصلاحية في استعادة كثير من أفراد هذه النخبة إلى رحم مجتمعها في فكرها وعقيدتها ولغتها وقوميتها.

[1] – عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص ص.209– 210.

[2] ـــ عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج5، ص. 429ـــ430.